الموقف الروسى من القضية الفلسطينية

(الدبلوماسى، العدد 255-256 مايو/ يونيو 2017)

د. نـورهان الشيـخ

nourhanelsheikh@feps.edu.eg

منـذ مطلـع الخمسـينات كـان الاتحـاد السـوفيتى الحليـف الأساسـى للعـرب فـى مواجهـة الـدعم الأمريكـى المطلـق لإسـرائيل، وعقـب تفككـه أصـبحت روسـيا هـى "الراعـى الثـانى" لعمليـة السـلام خلفـاً للاتحـاد السـوفيتى باعتبارهـا دولـة الاسـتمرار لـه، إلا إنهـا لـم تسـع إلـى تفعيـل دورهـا هـذا بـل أن دورهـا أصـبح أكثـر محدوديـة وهامشـية ممـا كـان عليـه فـى ظـل الاتحـاد السـوفيتى السـابق، وتراجعـت المنطقـة وأهميتهـا علـى نحـو واضـح فـى أولويـات السياسـة الروسـية طـوال حقبـة التسـعينات، وذلـك نظـراً لإنشـغال القـادة الـروس آنـذاك بترتيـب الأوضـاع الداخليـة وإحكـام السـيطرة عليهـا فـى ظـل أزمـات اقتصـادية واجتماعيـة طاحنـة. ولـم تشـهد السـنوات الأولـى عقـب تفكـك الاتحـاد السـوفيتى تحركـاً دبلوماسـياً ملموسـاً ومشـاركة فعالـة مـن جانـب روسـيا فـى عمليـة التسـوية، باسـتثناء استضـافتها للجولـة الأولـى مـن المفاوضـات متعـددة الأطـراف فـى ينـاير 1992، مـن ناحيـة أخـرى، تطـورت العلاقـات الروسـية الاسـرائيلية. وبصـفة عامـة فإنـه خـلال حقبـة التسـعينات أقتصـر الـدور الروسـى علـى السـلوك اللفظـى الـداعم للسـلطة الفلسـطينية والنشـاط الدبلوماسـى ومحـاولات الوسـاطة السياسـية، والحـرص علـى احتفـاظ روسـيا بـأكبر قـدر مـن التـوازن فـى علاقاتهـا بمختلـف الأطـراف. وشـهد عـام 2001 بدايـه آليـة ربـاعى الوسـطاء الـدوليين، "الرباعيـة"، التـى تضـم روسـيا والولايـات المتحـدة والاتحـاد الأوربـى والأمـم المتحـدة، والتـى صـدر بهـا قـرار مجلـس الأمـن رقـم 1397 فـى مـارس 2002، ليعـزز مـن دور روسـيا فـى عمليـة التسوية السلمية، ولتعود فاعل ذو وضعية دولية وقانونية فى هذا الإطار.

ويمكـن إيجـاز أهـم ملامـح الموقـف الروسـى مـن القضـية الفلسـطينية فـى ثلاثـة أبعـاد أساسـية. أولهـا، التأييـد المطلـق للحـق الفلسـطينى، فروسـيا تؤكـد دومـاً علـى تأييـدها للحقـوق المشـروعة للشـعب الفلسـطينى وضـرورة التـزام إسـرائيل بتنفيـذ كافـة الاتفاقـات الموقعـة، والمحافظـة علـى مرجعيـة مدريـد وتطبيـق مبـدأ الارض مقابـل السـلام، وأن قـرارات مجلـس الأمـن الـدولى 242 و338 تعـد هـى الاسـاس لإحـلال السـلام فـى المنطقـة. كمـا تؤكـد

روسيا على حق الفلسطينيين فى اقامة دولتهم المستقلة، ورفض سياسة الاستيطان والعنف باعتبارها لا تخدم العملية السلمية. وكانت روسيا قد أيدت عدد من القرارات الهامة المتعلقة بالقضية الفلسطينية داخل الأمم المتحدة، منها قرار الجمعية العامة (13/10) فى أكتوبر 2003، الذى يدين تصرفات اسرائيل فى الأراضى المحتلة وبناءها لجدار الفصل العنصرى، والذى اعتبرته روسيا عملاً غير شرعى. ونجحت فى إستصدار قرار مجلس الأمن رقم 1515 بناء على اقتراح روسى والذى يقر خارطة الطريق ويجعل منها قراراً ملزماً بدلاً من كونها مجرد مبادرة من اللجنة الرباعية.

وفى بيان لها صدر فى 6 أبريل أكدت وزارة الخارجية الروسية تمسكها بحل الدولتين في تسوية القضية الفلسطينية بقرارات الأمم المتحدة المتعلقة بمبادئ التسوية السلمية، بما في ذلك وضع القدس الشرقية كعاصمة الدولة الفلسطينية المقبلة، وأعربت عن قلقها العميق من تدهور الأوضاع في عملية التسوية الإسرائيلية الفلسطينية، وأن عدم التقدم في عملية السلام في الشرق الأوسط قد يتسبب باتخاذ خطوات أحادية الجانب تؤدي إلى نسف آفاق حل القضية الفلسطينية.

وهو البيان الذى تضمن عبارة " كما نعتبر، مع ذلك، أمراً ضروريا أن نؤكد أننا ننظر، في هذا السياق، إلى القدس الغربية كعاصمة لدولة إسرائيل". وهى العبارة التى سارع الإعلام الإسرائيلي إلى تداولها على إنها اعتراف رسمي من قبل روسيا بصفة القدس الغربية كعاصمة حالية لإسرائيل، وهو ما نفته وزارة الخارجية فى بيان ثان صدر فى نفس اليوم مؤكدة أن الخارجية الروسية تحدثت عن "النتيجة المرجوة المستقبلية لتطبيق مبادئ حل الدولتين، التي حددتها الأمم المتحدة منذ سنوات عدة". وأن "تحديد الصفة النهائية للأراضي الفلسطينية، بما في ذلك مسألة القدس، يجب تنسيقها في إطار مفاوضات مباشرة بين الطرفين" . وتجدر الإشارة إلى أن قضية القدس صفت على السطح مؤخرا على خلفية إعلان الرئيس الأمريكي، دونالد ترامب، مرارا خلال حملته الانتخابية وبعد توليه الرئاسة، أنه سيعمل على نقل السفارة الأمريكية لدى إسرائيل من تل أبيب، وتحويل القدس إلى "عاصمة موحدة وأبدية لدولة إسرائيل"، على الرغم من الاعتراضات الفلسطينية والعربية والدولية. وهو ما دفع الرئيس محمود عباس، إلى إرسال أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، صائب عريقات، لزيارة موسكو في 12 يناير الماضى حاملا رسالة للرئيس الروسي فلاديمير بوتين يطلب فيها من الأخير التدخل لمنع نقل السفارة الأمريكية إلى القدس.

ثانيهـا، السـعى لتقريـب وجهـات النظـر بـين الجانـب الفلسـطينى والاسـرائيلى مـن ناحيـة، وبـين الأطـراف الفلسـطينية المختلفـة مـن ناحيـة أخـرى. وتعتـزم موسـكو تنظـيم لقـاء بـين الـرئيس الفلسـطيني محمـود عبـاس ورئـيس الـوزراء الإسـرائيلي بنيـامين نتنيـاهو خـلال شـهر مـايو، ووفقـا لتصـريحات وزيـر الخارجيـة الروسـي سـيرجي لافـروف فقـد وجـه الـرئيس بـوتين دعـوة لكليهمـا مـن أجـل كسـر الجمـود الـذي يسـود عمليـة السـلام بـين الفلسـطينيين وإسرائيل.

كمـا يتميـز الموقـف الروسـى مـن القضـية الفلسـطينية عـن نظيـره الأمريكـى والأوروبـى أيضـاً بالاحتفـاظ بعلاقـات جيـدة وقنـوات اتصـال مفتوحـة مـع كافـة القـوى الفلسـطينية ومـن بينهـا حركـة حمـاس التـى تصـنفها واشـنطن وبروكسـل كمنظمـة ارهابيـة. وفـى منتصـف ينـاير استضـافت موسـكو محادثـات غيـر رسـمية بـين ممثلـين عـن تسـع مـن الفصـائل الفلسـطينية منهـا "فـتح" و"حمـاس"، وأعلنـت الفصـائل الفلسـطينية إثـر اجتماعـات اسـتمرت 3 أيـام برعايـة روسـية أنهـا توصـلت إلـى اتفـاق لتشـكيل حكومـة وحـدة وطنيـة قبـل تنظـيم الانتخابـات، وكـان مـن الواضـح أن مهمـة التغلـب علـى الانقسـام الفلسـطيني ليسـت سـهلة، فـالنزاع بـين "فـتح" و "حمـاس" مسـتمر منـذ عـام 2006، واتخـذ مـرارا طـابع الصـدام المسـلح بينهمـا. هـذا، فـي حـين أن الفصـائل الفلسـطينية تختلـف مبـدئيا علـى سـبل ووسـائل الوصول إلى حل مع إسرائيل.

ثالثهـا، التـوازن والاحتفـاظ بعلاقـات جيـدة مـع إسـرائيل، فهـذا الـدعم الروسـى للقضـية الفلسـطينية ووحـدة الصـف الفلسـطينى يتـزامن مـع بعـد أخـر لموقـف روسـيا المتـوازن مـن الأطـراف المعنيـة وهـو ذلـك المتعلـق بعلاقتهـا بإسـرائيل. فتطـور السياسـة الروسـية ومواقفهـا تجـاه الصـراع العربـى الاسـرائيلى علـى مـدى الخمسـة عقـود الماضـية يوضـح أن تغيـراً ملحوظـاً قـد طـرأ عليهـا منـذ مطلـع التسـعينات فـى اتجـاه الاحتفـاظ بعلاقـات جيـدة ومتوازنـة مـع أطـراف الصـراع جميعـاً. فموسـكو تـرتبط بعلاقـات جيـدة، وإن كانـت متقلبـة، مـع اسـرائيل وفـى نفـس الوقـت تؤيـد الحـق الفلسـطينى، لأنهـا لا تجـد تنـاقض أو تعـارض بـين الأمـرين لاسـيما مـع اتجـاه عـدد مـن الـدول العربيـة ذاتهـا إلـى الانفتـاح علـى إسـرائيل والتعاون معها.

فمنـذ إسـتئناف العلاقـات الدبلوماسـية بـين الاتحـاد السـوفيتى واسـرائيل فـى أكتـوبر 1991 ، تطـورت العلاقـات الروسـية الإسـرائيلية علـى نحـو ملحـوظ، ولكنهـا كانـت دومـا عرضـة للمـد والجـزر وفقـاً للتطـورات الإقليميـة والدوليـة التـى كانـت تباعـد بينهمـا وتثيـر

التوتر من آن لأخر، إلا إنه سرعان ما كان يتم تجاوز الخلاف وتعود العلاقات إلى مسارها. ومنذ بدء الضربات الروسية ضد الارهابيين فى سوريا فى 30 سبتمبر 2015، كثفت اسرائيل اتصالاتها مع موسكو وكانت زيارة نتنياهو لروسيا فى مارس الماضى الرابعة فى غضون العام ونصف حيث أبدت اسرائيل حرصاً واضحاً على التفاهم والتنسيق مع روسيا التى أصبحت فاعل لا يمكن تجاوزه فى المنطقة، خاصة وأن نتنياهو كان يبدى عدم ارتياح فى التعامل مع أوباما وإدارته.

إلا إن الخلاف بين البلدين عاد إلى الواجهة مرة أخرى إثر إستدعاء الخارجية الروسية السفير الإسرائيلي في موسكو، على خلفية غارة الطيران الحربي الإسرائيلي على مواقع للجيش السوري في منطقة تدمر مارس الماضى، وطلبت منه توضيحات بشأن حادث اختراق طائراتها الأجواء السورية فى ضوء الاتفاق بين روسيا وإسرائيل حول مراعاة مسار العمليات الجوية فوق سوريا. كما انتقد الرئيس بوتين فى اتصاله الهاتفى مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو تصريح الأخير بشأن هجوم خان شيخون الكيميائي في إدلب السورية مطلع إبريل، وشدد على أنه "من غير المقبول توجيه اتهامات لا أساس لها إلى أحد قبل إجراء تحقيق دولي دقيق وموضوعي"، وهو ما اعتبره الإعلام الاسرائيلي توبيخا من قبل الرئيس بوتين لنتنياهو.

إن التطورات الإقليمية والدولية الحادة والمتسارعة تؤثر حتماً على الموقف الروسى من القضية الفلسطينية وفاعلية الدور الروسى فى الملف الفلسطينى، ولكن تظل روسيا الطرف الأكثر دعماً للحق العربى والفلسطينى رغم التفاهمات التى تفرضها المصلحة والضرورة مع اسرائيل.